Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 4:2 (1969)

صفات الله

للأستاذ سميح عاطف الزين

لما جاء المتكلمون ، و تسربت الأفكار الفلسفية ، ، و دب الخلاف بين المتكلمين فى صفات الله قال المعتزلة : (ان ذات الله و صفاته شئ واحد). فالله حى ، عالم ، قادر ، بذاته ، لا بعلم و قدرة و حياة زائدة على ذاته ، لأنه لو كان عالما بعلم زائد على ذاته ، و حيا بحياة زائدة على ذاته ، كما هو الحال فى الانسان ، للزم أن يكون هناك صفة و موصوف ، و حامل و محمول ، و هذه هى حالة الأجسام و الله منزه عن الجسمية ، فلو قلنا كل صفة قائمة بنفسها لتعدد القدماء ، و بعبارة أخرى لتعددت الالهة. و قال أهل السنة : (لله ، سبحانه و تعالى ، صفات ، قائمة بذاته ، و هى لا هو ، و لا غيره) أما كونه له صفات ، فلما ثبت من أنه عالم حى قادر . . الى غير ذلك و معلوم ''أن كلا من العلم و الحياة و القدرة و ما شاكلها ، يدل على معنى زائد على مفهوم الواجب ، و ليس الكل ألفاظا مترادفة ، فلا يمكن أن يكون كما تقول المعتزلة من أنه عالم لا بعلم ، و قادر لا بقدرة . الى غير ذلك ، فان المحال ظاهر بقولنا الأسود لا سواد له. و قد نطقت النصوص بثبوت علمه و قدرته و غيرهما ، و دل صدور الافعال على وجود علمه و قدرته لا على مجرد تسميته عالما قادرا. و أما كون صفاته تعالى أزلية فلاستحالة الحوادث بذاته تعالى. ان القديم الازلى يستحيل أن يقوم به حادث، و أما كونها قائمة بذاته تعالى. فان ذلك من الضروريات للوجود . لأنه لا معنى لصفة شئ الا ما يقول به فلا يعنى كونه عالما قيام

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الصفة بالمعلوم ، بل معنى كونه عالما قيام صفة العلم به "و أما كونه لا هو و لا غيره ، فان صفات الله ليست غير الذات ، لان العقل يحتم أن الصفة غير الموصوف فهى معنى زائد من الذات ، و لأنها صفة الله فليست هى الله ، اذ هى ليست شيئا و لا ذاتا و لا أينا و انما هى وصف لذات ، فهى مع كونها ليست ذات الله فهى ليست غير الله ، بل هى صفة الله. و أما قول المعتزلة لو جعلت كل صفة قائمة بنفسها ، لتعدد القدماء ، فان هذا حاصل فيما لو كانت الصفة ذاتا ، أما و هى وصف للذات القديمة فلا يلزم من إلصاق الذات بها تعدد الذوات ، بل يلزم تعدد صفات الذات الواحدة و ذلك لا يتنافى مع الواحدانية ، و بذلك أثبت أهل السنة ، عقلا ، أن لله صفات هى غير ذاته و هى غير غيره ، لأن الصفة غير الموصوف ، ولا تنفصل عنه ، ثم بينوا كل صفة من هذه الصفات الأزلية فقالوا : ان صفة العلم ، و هى صفة أزلية ، تكشف المعلومات عند تعلقها بها. و القدرة هى صفة أزلية ، تؤثر فى المقدورات عند تعلقها بها ، الى آخره ، و هكذا بين أهل السنة ما تعنيه صفات الله ، بعد أن أثبتوا أن لله صفات أزلية ، الا أن المعتزلة نفوا أن تكون هذه الصفات هى المعانى لصفات الله فقالوا : اذا ثبت أن الله قادر ، عالم ، محيط ، و أن ذات الله و صفاته لا يلحقها تغير ، لأن التغير صفة المحدثات ، و الله منزه عن ذلك ، فاذا وجد الشئ و كان غير موجود و عدم و كان موجود و عدم و كان موجودا ، و قدرة الله و ارادته تولتا ذلك فأوجدتا الشئ بعد أن لم يكن ، و أعدمتاه بعد أن كان ، فكيف تتعلق القدرة الالهية القديمة بالشئ الحادث فتوجده؟ و لم أوجدته فى هذه اللحظة ، دون غيرها ، و ليس زمن اولى من زمن؟

فمباشرة القدرة لشئ ، بعد أن كانت لا مباشرة تغير فى القدرة ، و قد ثبت أن الله لا يلحقه تغير و هو شأن القديم الازلى ، و كذلك

القول فى الارادة ، و مثل ذلك يقال فى العلم.

فالعلم ، انكشاف المعلوم على ما هو عليه ، يتغير من حين لآخر ، فورقة الشجرة تسقط بعد أن كانت غير ساقطة ، و الرطب يتحول يابسا ، و الحى ميتا ، و علم الله ينكشف بالشئ على ماهو عليه. فهو عالم بالشئ قبل أن يكون ، على أنه سيكون عالما بالشئ اذا كان و عالماً بالشئ اذا عدم على انه عدم ، فكيف يتغير علم الله بالموجودات، و العلم المتغير بتغير الحوادث علم محدث ، و الله تعالى لا يقوم به محدث ، لأن ما يتعلق به المحدث محدث. و أهل السنة تقول :

ان للقدرة تعلقين : أزليا لا يترتب عليه وجود المقدرة بالفعل. و حادثا يترتب عليه وجود المقدور بالفعل ، فالقدرة تعلقت فى الشئ فأوجدته ، و كانت موجودة قبل تعلقها به ، فتعلقها لا يجعلها حادثة و مباشرتها للشئ بعد أن كانت لا مباشرة ، لا يكون تغيرا فى القدرة ، فالقدرة هى هى دائما تعلقت فى الشئ فأوجدته فالمقدور هنا الذى تغير، أما القدرة فلم تتغير.

و أما العلم فان جميع ما يمكن أن يتعلق به معلوم بالفعل ، اذا اقتضى للعالمية ذاته تعالى ، و المعلومية ذوات الأشياء و نسبة الذات الى الجميع على السواء ، و العلم لا يتغير حسب الذات و انما يتغير من حيث الاضافية ، و هذا جائز ، و انما المستحيل تغير العلم نفسه و الصفات القديمة كالقدرة و العلم و غيرهما ولا يلزم من قدمها قدم تعلقاتها ، فتكون قديمة و تتعلق بالمحدثات و يبدو أن الذى حمل المتكلمين على سلوك هذه الطريقة فى البحث ، أمران أحدهما : أنهم لم يكونوا يدركون تعريف العقل ، بعد ما روى عنهم أنهم عرفوه بقولهم : (ان العقل هو للقوة قوة النفس و الادراك ، هو غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات) و يقولون ان العقل هو جوهر تدرك

به الغائبات بالوسائط و المحسوسات بالمشاهدة ، و من كان فهمه للعقل هذا الفهم فليس غريبا عليه أن يطلق لنفسه العنان ، فيرتب فطريا قضايا متعددة ، و يخرج منها بنتيجة لا وجود لها ، و يقول عن نفسه انه أدرك بالفعل هذه النتيجة . .

و الثانى : أنهم لا يميزون بين طريقه القرآن فى ادراك الحقائق . و طريقة الفلسفة فى ادراكها ، لأن القرآن يبحث فى الالهيات ، و الفلاسفة يبحثون فيها أيضا ، أما بحث الفلاسفة فقائم على النظر فى الوجود المطلق ، و ما يقتضيه لذاته ، فهم لم يبحثوا فى الكون و انما بحثوا فى ما وراء الكون و أخذوا يرتبون البراهين بمقد ماتها ، و توصلوا منها الى نتائج ، ثم رتبوا على هذه النتائج ، ثم رتبوا على هذه النتائج نتائج أخرى ، و هكذا حتى توصلوا الى ما اعتبروه حقيقة عن الذات و عن مقتضيات هى الذات ، و هم جميعا على اختلاف النتائج التى توصلوا إليها ، قد سلكوا فى بحثهم طريقة واحدة ، هى بحث ماوراء الطبيعة ، أى ما وراء الكون ، و اقامة البراهين المرتبة اما على فرض نظرية ، أو على براهين أخرى ، و الوصول الى نتائج يعتبرونها قطعية .

و هذه الطريقة فى البحث تخالف طريقه القرآن الكريم ، لان القرآن الكريم ، انما بحث فى الكون نفسه ، و الموجودات المحسوسة ، أى فى الكائنات و الحيوان و الانسان .

و يتوصل منها الى أن يدرك السامع خالق الكون ، خالق الموجودات ، و حين يبحث فيما وراء الكون مما لا يقع تحت الحس ، و لا يدرك من الموجودات ، فانه يصف و اقعا أو يقرر حقيقة و يأمر بالايمان بذلك أمرا قاطعا ، و يلفت نظر الانسان الى ادراكه ، و لا الى شئ ليدركه منه ، و ذلك كصفات الله و كالنار و الجن و الشياطين و ما شابه ذلك ، و هذه الطريقة فهمها الصحابة ، و ساروا عليها ، و اندفعوا فى البلاد يحملون للناس رسالة الاسلام ، ليسعدوهم بها كما سعدوا هم

بهذه الرسالة ، الى أن تسربت الافكار الفلسفية من الفلسفة اليونانية و غيرها ، و وجد المتكلمون ، و صار الجدال فى ذات الله ، و فى صفة الله ، فوق كونه جدلا عقيما ، لا يعتبر بحثا عقليا مطلقا ، لأنه بحث فى شئ لا يقع عليه الحس ، و كل ما لا يقع عليه الحس لا مجال للعقل فى بحثه.

على أن البحث فى صفات الله و التساؤل : أهى عين الذات أم غير الذات؟ هو بحث فى الذات ممنوع أصلا و مستحيل ، و لذا كان بحث المتكلمين جميعا فى صفات الله فى غير محله ، فصفات الله توقيفية فيما ورد منها فى النصوص القطعية ، و قد ذكرناه بالقدر الذى ورد فى النصوص لا غير ، فلا يجوز أن نزيد صفة لن ترد ، ولا أن نشرح صفة بغير ما ورد عنها بالنص القطعى.

المفاهيم و المعلومات

المفاهيم : معانى الأفكار لا معانى الألفاظ ، فاللفظ ، كلام دل على معان ، قد تكون موجودة فى الواقع ، و قد لا تكون ، فالشاعر حين يقول :

و أخفت أهل الشرك حتى إنه　　لتخافك النطف التى لم تخلق

فان هذا المعنى فى الشطر الاول موجود فى الواقع و مدرك حسا.

و لكن المعنى فى الشطر الثانى غير موجود مطلقا. فهذه المعانى للجمل ، تشرح و تفسر الفاظها. اما معنى الفكر فيتلخص فى أنه اذا كان لهذا المعنى الذى تضمنه اللفظ واقع يقع عليه الحس أو يتصوره و لا يكون مفهوما عند من لا يحسه و لا يتصوره ، فعلى المتلقى أن يفهم معانى الجمل كما تدل عليه من حيث هى ، لا كما يريدها لا فظها ، و ان يدرك ، فى نفس الوقت واقع هذه المعانى فى ذهنه ، ادراكا يشخّص له هذا الواقع ، حتى تصبح هذه المعانى مفاهيم فالمفاهيم هى المعانى المدرك

لها واقع في الذهن ، سواء كان واقعا محسوسا في الخارج، أم واقعا مسلما به أنه موجود تسليما مبنيا على واقع محسوس ، و ما عدا ذلك من معاني الألفاظ و الجمل لا يسمى مفهوما ، بل مجرد معلومات ، و تتكون هذه المفاهيم من ربط الواقع بالمعلومات أو من ربط المعلومات بالواقع.

و أفكار الاسلام مفاهيم و ليست معلومات لمجرد المعرفة ، و كونها مفاهيم لها مدلولات واقعة في معترك الحياة ، و ليست مجرد شرح الأشياء التي يفرض المنطق المجرد وجودها ، بل كل مدلول يدل عليه له واقع يمكن للانسان أن يضع اصبعه عليه سواء كانت مفاهيم عميقة يحتاج ادراكها الى استنارة أو كانت ظاهرة يمكن فهمها بسهولة ، و سواء كانت محسوسة بالحواس كالمعالجات و الأفكار و الآراء العامة أو كانت غيبية ، و لكن الذى أخبرنا عنها قد قطع العقل حسا بصدقه كالملائكة و الجنة و النار فكلها وقائع موجودة لها مدلولات واقعة حسا و ذهنا ، أو مدلولات واقعة ذهنا على شكل قطعي جازم.

العقلية و النفسية

عندما تتكوّن المفاهيم من ربط الواقع بالمعلومات ، يتبلور هذا التكوين حسب القاعدة أو القواعد التي يجرى عليها قياس المعلومات و الواقع ، حين الربط ، ثم توجد بذلك للشخص عقلية تفهم الالفاظ و الجمل ، ، لتدرك المعاني بواقعها المشخّص ، و تصدر حكمها عليه.

فالعقلية اذا هي الكيفية التي يربط فيها الواقع بالمعلومات ، بقياسها الى قاعدة واحدة أو قواعد معينة ، و من هنا يأتي اختلاف العقليات كالعقلية الاسلامية ، و العقلية الشيوعية ، و العقلية الرأسمالية ، و العقلية الفوضوية ، و العقلية الرتيبة.

النفسية : هى الكيفية التى يجرى عليها اشباع الغرائز و الحاجات العضوية ، و بعبارة أخرى هى الكيفية التى تربط فيها دوافع الاشباع بالمفاهيم ، فهى مزيج من الارتباط الحتمى الذى يجرى طبيعيا فى داخل الانسان ، بين دوافعه و المفاهيم الموجودة لديه عن الاشباع ، مربوطة بمفاهيمه عن الحياة .

الشخصية : و من هذه العقلية والنفسية تتكون الشخصية ، فالعقل أو الادراك ، و ان كان فطرة ، وجوده حتمى لدى كل انسان ، و لكنه تكوين يجرى بفعل الانسان ، و الميول لا شباع الغرائز و الحاجات العضوية ، و ان كانت فطرية فى الانسان ، و جودها حتمى لدى كل انسان ، و لكن التكوين النفسى يجرى بفعل الانسان ، فان كانت هذه القاعدة أو القواعد التى يجرى عليها تكوين العقلية هى نفس القاعدة أو القواعد التى يجرى عليها تكوين النفسية ، فقد أوجدت عند الانسان شخصية متميزة بلون خاص ، و ان كانت القاعدة أو القواعد التى يجرى عليها تكوين النفسية ، منفصلة عن القواعد التى يجرى عليها تكوين العقلية ، كانت عقلية الانسان غير نفسيته لأنه حينئذ يقيس ميوله على قاعدة أو قواعد موجودة فى الاعماق ، فيربط دوافعه بمفاهيم غير المفاهيم التى تكونت بها عقليته ، فيصبح شخصية مختلفة متباينه ، أفكاره غير ميوله ، لأنه يفهم الالفاظ و الجمل ، يدرك الوقائع على وجه يختلف عن ميله للاشياء .

الشخصية الاسلامية : عالج الاسلام أعمال الانسان الصادرة عن حاجاته العضوية و غرائزه ، بالاحكام الشرعية المنبثقة عن هذه العقيدة نفسها ، معاجلة صادقة تنظم الغرائز و لا تكبتها ، و تنسقها ، و لا تطلقها ، و على هذا نجد أن الاسلام يكون الشخصية الاسلامية بالعقيدة الاسلامية فبها تتكون عقليته ، و بها نفسها تتكون نفسيته ، ان جعل الاسلام مقياسا لجميع الافكار عمليا و واقعيا يجعل عند الانسان عقلية اسلامية و نفسية اسلامية . و هما اللتان تجعلان ميولهما

كلها على أساس الاسلام ، فيكون الانسان حينئذ بهذه العقلية و هذه النفسية شخصية اسلامية ، بغض النظر عن كونه عالما أو جاهلا ، لأن كل من يفكر على أساس الاسلام و يجعل هواه تبعا للاسلام يكوّن شخصية اسلامية و الاسلام أمر بالاستزادة من الثقافة الاسلامية ، لتنمو هذه العقلية و تصبح قادرة على قياس كل فكر من الافكار ، و أمر بأشياء و نهى عن أشياء ، لتقوى هذه النفسية ، و تصبح قادرة على ردع كل ميل يخالف الاسلام ، و من هنا يأتي تفاوت الشخصيات الاسلامية ، و تفاوت العقليات الاسلامية و تفاوت النفسيات الاسلامية. و لذلك يخطئ كثيرا أولئك الذين يتصورون الشخصية الاسلامية بأنها ملك سماوى ، فهم يبحثون عن الملك بين البشر ، فلا يجدونه مطلقا ، بل لا يجدونه فى أنفسهم ، فييأسون و ينفضون أيديهم من المسلمين ، و هؤلاء الخياليون يبرهنون بتصورهم على أن الاسلام خيالى ، و أنه مستحيل التطبيق مع أن الاسلام جاء ليطبق عمليا ، و هو واقعى أى يعالج واقعا لا يصعب تطبيقه و فى متناول كل انسان مهما بلغ تفكيره من الضعف و مهما بلغت غرائزه و حاجاته العضوية من القوة ، فانه يمكن له أن يطبق الاسلام على نفسه بسهولة و يسر ، المسلم عندما يطبق الاسلام على نفسه يصبح شخصية اسلامية و يصبح مؤهلا للجندية و القيادة فى آن واحد ، جامعا بين الرحمة و الشدة و الزهد و النعيم ، يفهم الحياة فهما صحيحا ، فيستولى على الحياة الدنيا بحقها ، و ينال الآخرة بالسعى لها.

و لذا لا تغلب عليه صفة من صفات عبّاد الدنيا ، و لا يأخذه الهوس الديني و لا التقشف الهندى ، و فى الوقت الذى يكون سريا يكون متواضعا و يجمع بين الامارة و الفقه ، و بين التجارة و السياسة ، و أسمى صفة من صفاته أنه عبد الله تعالى خالقه و بارئه.

ثغرات فى سلوك المسلمين

يشاهد، عند كثير من المسلمين، ظهور أعمال تخالف عقيدتهم الاسلامية، و يشاهد عند كثير من الشخصيات الاسلامية، سلوك يتناقض مع الشخصية الاسلامية، فيظن البعض أن ما صدر من أعمال تخالف العقيدة الاسلامية قد أخرجت الشخص عن الاسلام، و أن ما برز من سلوك يتناقض مع صفات المسلم المتمسك بدينه يخرج الشخص عن كونه شخصية اسلامية، و الحقيقة أن وجود ثغرات فى سلوك المسلم لا يخرجه عن الاسلام. ذلك أنه قد يغفل الانسان فيغفل ربط مفاهيمه بعقيدته، أو قد يجهل تناقض هذه المفاهيم مع عقيدته، أو مع كونه شخصية اسلامية، أو قد يطغى الشيطان على قلبه فيجافى هذه العقيدة فى عمل من الاعمال، فيقوم بأعمال تخالف العقيدة و لذلك لا يصح أن يقال: انه فى مثل هذه الحال خرج عن الاسلام، أو أصبح شخصية غير اسلامية، لأن العقيدة الاسلامية، و هى الاساس، تصونه، فهو مسلم و ان عصى فى عمل من الاعمال، و ما دامت العقيدة الاسلامية أساسا لتفكيره و ميوله، يبقى شخصية اسلامية، و ان فسق فى سلوك معين من أنواع سلوكه.

و لا يخرج المسلم عن الاسلام الا بترك العقيدة الاسلامية قولا وعملا، فاذا طرأ خلل على العقيدة خرج الشخص عن الاسلام بهذه الحال فقط، و لو كانت أعماله مبنية على أحكام الاسلام، لأنها لا تكون حينئذ مبنية على الاعتقاد، بل على العادة، أو على مجاراة الناس.

الهدى و الضلال

الهدى، فى اللغة، الرشاد، يقال: هداه للدين: أرشده له، و هديته الطريق هداية، عرفته، و الضلال ضد الرشاد. و الهداية شرعا، الاهتداء الى الاسلام و الايمان به. و الضلال شرعا الانحراف

عن الاسلام. و منه قوله صلى الله عليه و سلم : (لا تجتمع أمتى على ضلال). و قد جعل الله الجنة للمهتدين ، و النار للضالين ، و هذا يدل على أن الهداية و الضلال من فعل الانسان ، و ليسا من الله اذ لو كانا من الله ، لما أثاب على الهداية و عاقب على الضلال ، لأن ذلك يودى الى نسبة الظلم الى الله تعالى : (و ما ربك بظلام للعبيد) ، الا أنه وردت آيات تدل على نسبة الهداية و الضلال الى الله تعالى مثل . (قل ان الله يضل من يشاء و يهدى اليه من أناب) و قوله (فان الله يضل من يشاء و يهدى من يشاء) و قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، و من يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء.

و قوله من يشاء الله يضلله و من يشأ يجعله على صراط مستقيم) و قوله : (و قالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا و ما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) و قوله : (من يهد الله فهو المهتدى و من يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) ، و قوله : (انك لا تهدى من أحببت و لكن الله يهدى من يشاء) ، فمنطوق هذه الآيات فيه دلالة واضحة على أن الذى يفعل الهداية و الاضلال هو الله سبحانه و تعالى ، لا العبد ، و هذا يعنى أن العبد لا يهتدى من نفسه الا اذا هداه الله ، و لكن هذا المنطوق قد جاءت قرائن تصرف معناه ، عن جعل مباشرة الهداية و الضلال من الله ، الى معنى آخر ، هو جعل خلق الهداية و خلق الضلال و الاضلال هو العبد ، أما هذه القرائن فشرعية و عقلية.

القرينة الشرعية

جاءت آيات كثيرة تنسب الهداية و الضلال و الاضلال الى العبد ، قال تعالى : (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه و من ضل فانما يضل عليها) و قال : (لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) و قال : (أولئك هم

المهتدون) و قال : (و قال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن و الانس نجعلهما تحت أقدامنا) و قال : (فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم) و قال : (قل ان ضللت فانما أضل على نفسى) و قال : (و أضلهم السامرى) و قال (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم. و ما يضلون الا أنفسهم) و قال : (و يريد الشيطان أن يضلهم). فمنطوق هذه الآيات ، فيه دلالة واضحة على أن الانسان هو الذى يفعل الهداية و الضلالة ، فيضل نفسه و يضل غيره و أن الشيطان يقوم بالاضلال أيضا ، فهذه قرينة على أن نسبة الهداية و الاضلال الى الله ليست نسبة مباشرة ، بل هى نسبة خلق. فانك اذا وضعت الآيات مع بعضها ، و فهمتها فهما تشريعيا يتبين لك انصراف كل منها الى جهة غير الجهة التى للاخرى ، كالآية التى تقول (قل الله يهدى للحق) و الآية الاخرى تقول : (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه). فالاُولى تدل على أن الله هو الذى هدى ، و الثانية تدل على أن الانسان هو الذى اهتدى. و هداية الله فى الآية الاولى هى خلق للهداية فى نفس الانسان أى ايجاد قابلية الهداية و الآية الثانية تدل على أن الانسان هو الذى باشر ما خلقه الله من قابلية الهداية ، و ترك الانسان يباشر الاهتداء بنفسه.

فهذه الآيات التى تنسب الهداية و الاضلال الى الانسان قرينة شرعية دالة على صرف مباشرة الهداية عن الله الى العبد.

القرينة العقلية

ان الله يحاسب الناس فيثيب المهتدى و يعذب الضال ، قال تعالى : (من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فعليها و ما ربك بظلام للعبيد) و قال تعالى : (ان أحسنتم احسنتم لانفسكم و ان أسأتم فلها) و قال تعالى : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره و من يعمل مثقال ذرة

شرا يره) جعل اذا معنى نسبة الهداية و الضلال لله مباشرة ، فان عقابه للكافر و المنافق و العاصي يكون ظلما ، و تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فوجب أن يصرف معناها على غير المباشرة ، و هو خلق الهداية من العدم و التوفيق اليها ، فيكون الذى يباشر الهداية و الاضلال هو العبد ، و لذلك يحاسب عليها .

و أما من ناحية الآيات التى تقترن فيها الهداية و الاضلال بالمشيئة مثل قوله تعالى : (يضل من يشاء و يهدى من يشاء) فان معنى المشيئة هنا هو الارادة ، و معنى هذه الآيات هو أنه لا يهتدى أحد و لا يضل أحد جبرا ، بل يهتدى من يهتدى بارادة الله و مشيئته و يضل بارادته و مشيئته . وكان السلف الصالح يفهم هذا المعنى و يدركه ادراكا حسيا . و مما ذكر أن عليا عليه السلام ، بعد رجوعه من صفين ، سأله رجل : هل كان ما حدث فى صفين بمشيئة الله و قضائه ؟ فأجابه سلام الله عليه : (ان الله أمر تخييرا و نهى تحذيرا وكلف يسيرا ، فلم يطع مكرها ، و لم يعص مغلوبا ، و لم يرسل الرسل عبثا ، ذلك ظن الذين كفروا) و أما فيما يتعلق ذكر القرآن الكريم بأناس لا يهتدون أبدا ، كقوله تعالى : (ان الذين كفروا سواء عليهم أ أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يومنون) و قوله : (كلا بل ران على قلوبهم) و قوله : (و أوحى الى نوح أنه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن) . فهذه الآيات اخبار من الله لأنبيائه عن أناس مخصوصين بأنهم لم يومنوا ، و هذا داخل فى علم الله ، و ليس معناه أن هناك فئة تؤمن و فئة لا تؤمن ، بل كل انسان فيه قابلية الايمان .

و أما قوله تعالى : (و الله لا يهدى القوم الفاسقين) و قوله : (و الله لا يهدى القوم الظالمين) و قوله : (و الله لا يهدى القوم الكاذبين) (من هو مسرف كذاب) ان هذه الآيات تعنى عدم توفيق الله لهم

بالهداية ، اذا التوفيق للهداية هو من الله ، و الفاسق و الظالم و الكافر و الضال و المسرف الكذاب ، كل أولئك يتصفون بصفات تتناقض و تتنافر مع الهداية ، و الله لا يوفق للهداية من كانت هذه صفته لأن التوفيق للهداية تهيئة أسباب للانسان ، و من يتصف بهذه الصفات لا تتهيأ له أسباب الهداية ، بل أسباب الضلال ، و نظير قوله تعالى : (و اهدنا الى سواء الصراط) و قوله : (اهدنا الصراط المستقيم) أى وفقنا لأن نهتدى ، بمعنى يسر لنا أسباب هذه الهداية.

الفتنة أو التجربة

يمر على الانسان حين يتخلى الله عنه ، ليضعه فى الفتنة بعد أن يقدم له البراهين و الأدلة الواضحة ، هناك يظهر للانسان ضعفه و تسيطر عليه شهوته ، و يحاول أن يكافح ، لكن بدون جدوى.

فسرعان ما يستسلم ، فاذا كان هذا الرجل مؤمنا حقا ، فيندم أشد الندم ، و ربما ، يأخذ بالبكاء كما يبكى الطفل من فرط ندمه ، بينما تراه فى الملمات القاسيات ثابتا كالجبل لا يتزعزع ، و لكنه بعد البكاء المر و الندم الشديد و الاستغفار المقلقل (أى غير الثابت) يأخذ على نفسه بعزم و تصميم أنه لن يعود لمثل هذه المعصية ، فيبدأ بوضع و سائل الدفاع التى أمره الله بها ، و لكن اذا ما بقى فى النفس شئ من الشهوة لهذا العمل الذى قام به سابقا ، فترى جميع الوسائل التى صنع منها جهازا قويا للدفاع يبدأ بالانهيار تدريجيا من قبل البقية الباقية من الشهوة الكامنة فى النفس.

و النصر النهائى لهذا المؤمن من الله سبحانه و تعالى ، لا يكون الا اذا ذكر هذا المؤمن الاشياء على حقائقها ، و من ثم يرى العمل الذى يقوم به لا يساوى شيئا بالنسبة لمعصية الله سبحانه و تعالى ، و بالنسبة الى العمل نفسه ، ثم يحاول انتزاع هذه الشهوة من نفسه المؤمنة الحيرى.

و لكن التوفيق لا يواكبه الا اذا باشر بابعاد نفسه عن ذلك الشيء المشتهى ، ليبرهن ، أمام الله و أمام نفسه ، أنه مؤمن حقا ، أو أن الله سبحانه بلطفه يميت هذه الشهوة فى النفس ، أو يعطلها بمرض أو غيره أو يبعد الله هذا المشتهى فيكون ، بذلك ، الفضل لله وحده ، قال تعالى : (يريد الله أن يخفف عنكم و خلق الانسان ضعيفا) .

و قوله : (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا و هم لا يفتنون ، و لقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا و ليعلمن الكاذبين)

الاستمرار فى المعصية استسلام للشيطان

أنا لا ألوم الذين يذنبون ، و لكنى ألوم الذين يصرون على ذنوبهم و لا ألوم الذين يكررون الذنب بدافع ضعفهم المركب و جبلتهم التى جبلهم الله عليها ، و لكنى ألوم الذين لا يحاولون أن يتخاصمون من هذه الآثام بعد معرفتهم اياها و خوفهم من الله فى نهايتها و مشاهدة مراقبة الله اياهم . و السؤال الذى ينبغى أن يسأل : كيف تكون المحاولة بعد ما وقع الانسان فى شرك الشيطان ، و أصبح هذا العمل عادة حتى امتزجت فى دمه و حياته اليومية أو الاسبوعية ؟، و الجواب : المنقذ هو الله سبحانه و تعالى ، فعليك أن تدعوه خوفا و تضرعا لأنه هو الملجأ الوحيد ، و عليك أن تستعمل الامكانيات التى وهبك الله اياها و مكنك منها ، و ستتغلب بعدها بحول الله و قوته ، على قطع الشراك التى نصبها لك الشيطان و أقامها بمعونة المغريات التى مكنه الله منها . و سيثبت اخلاصك لله عز و جل و لنفسك أيضا . و اياك أن تيأس من روح الله ، و ترتمى نهائيا فى أحضان الشيطان لأن الرجعة تكون صعبة عليك . (و من يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) .

(الشيطان يعدكم الفقر و يأمركم بالفحشاء و الله يعدكم مغفرة منه و فضلا و الله واسع عليم) .

الحلول الصحيحة

ان المشاكل و العقد المتنوعة التى تقع على الانسان ، تحتاج اما الى حل مادى أو فكرى ، و الحلول لن تكون حلولا صحيحة ، الا اذا كان هناك اقتناع يقينى بصلاحيتها .

و اننى لأرى أن أفضل الحلول هو قرأت القرآن الكريم ، و رب معترض على ذلك يقول لقد قرأت القرآن كله و لم أجد حلا . فالجواب على ذلك أنه لقد فاتتك الآيات التى تتضمن الحلول ، و بعد فواتها ، اصطدمت بالمشكلة ، فأكملت القرآن و لم تعثر على الآيات التى تحل هذه المشكلة ، فكرر مراجعة القرآن ثانيا و ثالثا و تمعن فى المشكلة ، و بمعانى الآيات ، و ما تهدف اليه ، فتنتهى بحلول مقنعة بحول الله و قوته ، سواء كانت مادية ، أم فكرية لقوله تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها) (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم) .

الفرق بين الايمان والاسلام

قال الله تعالى : (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا و لكن قولوا أسلمنا و لما يدخل الايمان فى قلوبكم .) و قال تعالى : (يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ان كنتم صادقين) ، و قال عزوجل : (ان الدين عند الله الا سلام ، و ما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، و من يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب ، فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله و من اتبعن و قل للذين أوتوا الكتاب و الأميين أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا و إن تولوا فانما عليك البلاغ و الله بصير

بالعباد) و قال جل شأنه (و من يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه) .

و روى أنس عن النبى (صلى الله عليه و سلم) قال : (الا سلام علانية ، و الايمان فى القلب ، و أشار الى صدره) بينما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم بارزا للناس فأتاه رجل فقال : يا رسول الله ، ما الايمان ؟ قال : أن تؤمن بالله و ملائكته و كتابه و لقائه و رسله و تؤمن بالبعث الآخر . قال : يا رسول الله ، ما الاسلام ؟ قال : (الاسلام أن تعبد الله و لا تشرك به شيئا ، و تقيم الصلاة المكتوبة ، و تؤدى الزكاة المفروضة وتصوم رمضان) و بذلك يتبين أن للايمان خصالا ، و أن للاسلام خصالا . فمن جمع خصال الاسلام كان مؤمنا مسلما و من كانت لديه خصال الايمان ، و هو غير منقاد لله ، فهو مؤمن و ان كان لا يمكن أن ينفى عنه الاسلام لأن من آمن بما جاء به دين الاسلام كان مسلما ، و لا يكفر بترك خصال الاسلام ، و لكن من كانت لديه خصاله ظاهرا و يبطن جحودا لبعض ما جاء به رسول الله (صلى الله عليه و سلم) فيمكن أن يقال عنه انه مسلم و يوكل أمر ايمانه لله تعالى ، و منذ بعثة الرسول (صلى الله عليه و سلم) حتى اليوم الى قيام الساعة وجد بين المسلمين أناس يمكن ان يقال عنهم أنهم مسلمون ، و لكن مسألة كونهم مؤمنين يعلمها الله لأنه يعلم السر و أخفى .

و قيل عنهم انهم مسلمون ، لأنهم يقومون بالاعمال التى أمر بها الاسلام من عبادة و صلاة و زكاة و صوم ، و ما الى ذلك .

و الاسلام المعتبر هو الاسلام على الحقيقة الذى يجمع بين خصال الاسلام و خصال الايمان . أما من جمع خصال الايمان ، و لكنه لا يتصف بخصال الاسلام فهو مومن و مسلم ، و لكنه ضعيف الاسلام ، و من النادر أن يكون شخص ضعيف الاسلام ، الا اذا كان ذلك ناتجا عنده من ضعف الايمان . و من كان متصفا بخصال الاسلام ظاهرا ،

و لكنه يبطن جحودا قيل عنه انه مسلم ظاهرا ، و لكن اسلامه لا يكون اسلاما على الحقيقة ، فعلى المسلمين أن ينتبهوا لهذا و لا يغتروا بأنفسهم ، فيجب أن يدخل الايمان فى قلوبهم مع قيامهم بأعمال الاسلام حتى يكون اسلامهم اسلاما على الحقيقة .

العقيدة الاسلامية

هى الايمان بالله و ملائكته و كتبه و رسله و اليوم الاخر ، و معنى الايمان هو التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل ، فوجود الدليل شرط أساسى فى وجود الايمان ، بغض النظر عن كونه صحيحا أو فاسدا ، و الدليل اما أن يكون عقليا أو نقليا ، و الذى يعين كون الدليل عقليا أو نقليا ، واقع الموضوع الذى يستدل به عليه للايمان به ، فان كان الموضوع واقعا محسوسا تدركه الحواس ، فان دليله يكون عقليا لا نقليا ، و ان كان مما لا تدركه الحواس يكون دليله نقليا .

و لما كان الدليل النقلى نفسه مما لا تدركه الحواس ، لم يكن بد من أن يكون اعتبار النقلى دليلا يصلح للايمان ، متوقفا على ثبوت كونه دليلا بالدليل العقلى .

فمن مضمون هذا الكتاب الكريم المرسل من عند الله تعال ، فهمنا أنه يجب علينا أن نقوم بالتعاليم التى أنزلها الله ، و أن نكيف أعمالنا و ظروفنا ، و نسير أنفسنا على خطة معينة رسمها الرسول المنزل عليه .

فكما أننا أجبنا عن طريق الفكر المستنير من أين أتينا ، و لماذا أتينا و الى أين المصير ؟ أصبحنا نعتقد اعتقادا جازما ، لا يعتريه شك و لا ريب ، بأن الله خلقنا و أنه أرسل رسولا للناس كافة ، و أمرهم باتباعه و طاعته ، ثم دعاهم للتسليم بأحكامه تسليما كليا فان نفذوا

أوامره و نواهيه كان المصير الى جنة أعدت للمطيعين . و ان خالفوه و ابتعدوا عن سبيله كان المصير الى نار أعدها للمستكبرين .

بقى علينا أن نلقى نظرة عامة على جميع المفاهيم و الافكار التى يحملها جميع الذين أجابوا أجوبة تختلف عن الاجوبة التى أجبنا عليها أنفسنا ، فنلاحظ أن الدعاة فى العالم اليوم فريقان : فكريا و عمليا ، دعاة الديمقراطية و دعاة الاشتراكية الشيوعية ، فدعاة الديمقراطية لهم نظرة فى أسباب وجودهم ، و الغاية منه و المصير الذى ينتهون اليه كما أن للشيوعية الاشتراكية نظرة تختلف كل الاختلاف عن النظرة الديمقراطية . علينا ، اذا ، أن نعرف كل نظرة على حدة .

ها كم شرحا موجزا عن النظرة و القاعدة التى قام عليها كل من الاسلام ، والديمقراطية ، و الاشتراكية ، و كيف نشأكل مبدا ، على أى أساس قام ، و ما هى نظرته الى الحياة .